الموسم

مجلة فصلية مُصوّرة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 12) – 1991 – 1412

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمّد سعيد الطريحي

شماره ثبت
تاریخ

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ترسل جميع المراسلات والطلبات بإسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

هولندا

AL KUFA HOUSE POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
HOLLAND

Shiabooks.net

الاشتراك السنوي للأفراد ٥٠ $ وللمؤسسات ١٠٠ $.

كتاب الموسم

من لا يحضره الخطيب

للسيد داخل السيد
حسن الخطيب

بقلم: الدكتور عبد الكريم محمد حسين(*)

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وأنتَ تقرأُ كتابَ الاستاذ داخل السَّيّد حسن تشعرُ أن الكتابَ حيٌّ، وأنه مشدود إلى جذورٍ بعيدةٍ، وتتساءلُ عن أسبابِ هذا الشعور، وتبحثُ عن مُسَوِّغاتِهِ، فماذا تجدُ؟

وفي الطريقِ إلى الإجابةِ عن هذا التساؤلِ أودُّ لو تذكرتَ أنَّ اختيارَ الرجلِ جزءٌ من عقلِهِ، وعقلُه مشدودٌ إلى نفسِه وبَدَنِه، فهو مُشْتَبِكٌ بِهِ على مستوى الحسِّ والنفسِ والوعي، وخلاصةِ التكوينِ الحضاري.

ومن هنا نعود إلى المؤلف صاحبِ الاختيار، وسيرتِهِ الذاتيةِ لنعلمَ أثرَ الحياةِ والمحيطِ في اختيارِ الرجل، ومقدار استجابة وعيه لأصداءِ الحياة في مرآة النفس والوعي معاً، على أن العمليةَ معقدةٌ، وليس هذا موضعٌ بسطِها، وإنما يمكن أن نثبتَ أنَّ حياةَ النصِ جزءٌ مِنْ حياةِ مبدعِهِ أولاً، ونَغَمٌ تستجيبُ لَهُ اشواقُ متلقيه على وجهِ الاستحسانِ والاختيارِ له، وبهذا ندفعُ مقولةَ الغربيين القائلةَ بموتِ المؤلف، ولامتنا من سماتِ التفرد مايؤكدُ هذا المذهب.

(*) دكتوراه في النقد العربي القديم، مدرس في كلية الآداب وكلية الشريعة في جامعة دمشق. ولد في قرية حبيب الميس في الجولان سنة ١٩٥٣م.

له مؤلفات مخطوطة منها:

(١) نقد أعلام الرواة ـ الشعر العربي حتى أوائل القرن الثالث الهجري (موضوعاته ولغته).

(٢) نقد الشعر عند ابن قتيبة (مصادره وأثره في مَنْ جاء بعده).

يكتب المقالة في الصحف العربية منذ سنة ١٩٨١م.

* حياة المؤلف :

وكان البحثُ عنْ حياةِ العالمِ العربي داخلِ السيد حسن من صِعَابِ البحثِ لتعليل مسألةَ الاختيار لديه، ممايدعو إلى كتابةِ ملخص موجزٍ عن كُلِّ صاحب قلمٍ وإبداع وفن من أبناء زمننا، وحسبُ القدماء مابذلناهُ من مجهود للحديثِ عنهم، لأنهم ملؤوا حياتَهم، وأسَرُّوا حياةَ الكثيرينَ مِنّا، مِمَّنْ عاشوا الأولئك القدماء وعرفوا من خفياتِ حيواتهم ماكانَ خفياً على جيرانهم في أزماتهم، وهؤلاء المعاصرون لانعرف عن سير حياتهم شيئاً، وهم على مقربة منا.

وحاولتُ ـ بطريقة أو بأخرى ـ أن أصِلَ إلى بعضِ الخطوطِ الأساسية في حياةِ الأستاذ داخل، وقد حجزه تواضُعه الجم عن الحديث في أكثر حياتِهِ إلى أن اختلسنا شيئاً قليلاً أسجل لكم بعضَهُ، مما يعين على فهمِ أصول اختياراته، والكتابةُ كالإبداعِ اختيارٌ، والاختيارُ دَليلٌ على صاحبه.

ينتهي نسبُ الأستاذ داخل بن حسن بن داخل بن محمد إلى موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ ورضي عن أبنائه. وهذا النسب يفسرُ اختيارَه لموضوع آلِ البيت، لأنَّ الرجل يرى أن أمانةَ النسبِ توجبُ عليهِ الحفاظَ على ميراثِ آلِ البيت، والعملِ على إذاعته في الناسِ فجعل عنوانَ كتابه «مَنْ لايحضره الخطيب» اي مَنْ لايحضر إليه الخطيب ليعظه، فإن الكتاب خطيب جَوَّالٌ يدخلُ في البيوتِ، والنفوسِ ويعظي لكلٍّ حسب استعدادهِ، ونصيبِهِ من الخير، على مايشير إليه ظاهر العنوان.

وقد أخذ علمه عن الحوزة العلميةِ في «جامعة النجف الأشرف» وهي مؤسسة علمية، مضى على تأسيسها ألفُ عامٍ على التقريب، والدراسةُ فيها تقوم على الاجتهاد الذاتي، وهي مؤسسة مستقلةٌ، وتلقى العلمَ فيها عشر سنوات ثم مضى خطيباً، ولقي من بعض الساسة مايلقاه المخلصون في هذا الزمن الرديء من الذين قَصُرَت أنظارُهم، وقَصَّرَت خطاهم على طريق النهوض بالأمة من كبوتها، فشرعوا في مصادرة كلِّ رأي أو فكر لايعزز دوام حال التخلف على الأمّة، وتمكيناً لصوالح الأعداء وتحقيقاً لمقاصدهم، مقابل هدف صغير هو اشباع رغبة فرد أو طائفة أو اسرة في التسلط على الناس وتحويلهم إلى عبيد العصا.

وفي هذا دلالة على أن اختيار موضوع آل البيت، والحسين في الشعر العربي جاء جواباً عن أحداث شَهِدَها أو عاشَ في سياقها المؤلف، مما يجعل اختياره مسوغاً بِنَسَبِه من جهةٍ، وبسيرِ حياتِهِ من وجهة أُخرى، وبرؤيته الفكرية، وباختيارِهِ لمذهب آل البيت من طريق الإمام جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ من غير انتقاص للطرق الأخرى كما يرى.

إذا كانت هذه التقديرات مما يتراءى لدارس حياة المؤلف واختياره بعامة، فماذا قال هو نفسُهُ في اختياراته !؟.

* اسم الكتاب :

يقومُ الأستاذ داخلٌ بإحياءِ التراث العربي الحضاري، فلا يكتفي بربطِ الشعراء المعاصرين بموضوعاتِ قصائدهم التراثيةِ، وشخصياتِ الأمةِ العظام، وإنما يحاول أن يربط عمله بعمل أحد علمائنا القُدَامى، فهو يقوم بعملية بعثٍ تراثي تبادلية: يجذب القدامى إلى المعاصرين، ويَشُدُّ المعاصرينَ إلى القدامى، فمن ذلك عنوانُ كتابِهِ «من لايحضره الخطيبُ» الذي بناهُ على أثرٍ سابق يوضحه، بقوله:

«أما عنوان الكتاب وتسميته بمن لايحضره الخطيب، فمن الطبيعي أن يقفز إلى الذهن هنا كتاب (من لايحضره الفقيه) الشهير عند الامامية على الصعيد الفقهي. . . انقدح في ذهني منذ زمن بعيد أن أكتب كتاباً بهذا العنوان، واخترت التسمية قبل التأليف، ثم مَرّت ظروف قاسية كابدت معها محنة الغربة، وفي خضم هذه المحنة فكرت جدياً في الكتابه في هذا الموضوع، واطلعت من جديد على كتاب (من لايحضره الفقيه) وإذا بي أُفاجَأ بأن مؤلفه الصدوق كان قد كابد الغربة وكتبه وهو بعيد عن موطنه، واتضح لي أنّ التسمية ليست من مبتكراته، وإنما سبقه أبو بكر الرازي الطبيب المعروف حيث ألف كتاباً من قبل اسماه (من لايحضره الطبيب). [من لايحضره الخطيب ١/٢٧].

فإذا كان الصدوق قد أخذ عنوانه عن أبي بكر الرازي الطبيب المشهور ولم يبتكره فإن الغربة وعدم حضور الأهل كانت سبباً مشتركاً بين الصدوق، والداخل في ظروف الاختيار إضافة إلى الرؤية الفكرية الواحدة بينهما، فنسبه الثقافي يعلو لديه، ويرتفع على أن شخصية داخل ـ حفظه الله وهدانا وإياه ـ العلمية تظهر في تواضعه في إعلان اتباعه بتغيير لفظ الفقيه وانتقاله إلى لفظ الخطيب، كما غَيَّر الصدوقُ لفظ الطبيب وجعله فقيهاً.

وفي عمل الرجلين مايبينُ أن صبغةَ الكتابِ وشروطَهُ التي يقوم عليها قد تبدلت وانتقلت الحقيقة من إطار الطب إلى عالم الفقهِ والتعقل والاستنباط، ونقل الأستاذُ داخلٌ البحثَ من الفقهِ إلى الخطابةِ والوعظِ والإرشادِ، وهذا يعطي هذه الكتبَ المتفقةَ في ظاهرِ أبنية العنوانِ، ألواناً وطعوماً مختلفة، مما يبين أن الجدَّة قد صحبت الإحياء وحركَته من بابٍ إلى بابٍ. هذا أثر العنوان، فماذا عن أثر الكتاب في طريقة بنائه؟.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

* منهج المؤلف في بناء كتابه:

أود أن أوضح بطاقة الغلاف لأن طبعةَ الكتابِ على علاقةٍ بتكوين الكتابِ وتأليفهِ كما سيتضح من حديث المؤلفِ عن كتابهِ، فهو قد حَدَّدَ المجلدات ولم تحدده الطباعة، وعلى الغلاف جاء مايلي:

مَنْ لايحضره الخطيب

بحوث ومحاضرات

في التفسير والتربية والأدب والتاريخ

تأليف

داخل السيد حسن

الجزء ـ (١ ـ ٤)

بيروت ـ مؤسسة البلاغ

الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م

فالكتاب في أربع مجلدات، وموضوعاته في تفسير بعض آيات القرآن، وتربية النفوس والعقول، وتهذيبها بالأدب العربي الواسع، وبمواعظ التاريخ ووقائعه. ومن الطبيعي أن يغلب الجانب الوجداني المؤثر والمصور على عرضه لمواده العلمية والدينية، لأن المؤلف خطيبٌ يوجه خطابَه إلى الناسِ الذين لايحضر إليهم الخطيب، وهو يريد أنهم لايحضرون هم إلى الخطيب، فكأنما عجزوا عن الوصول إلى الخطيب أو الفقيه أو الطبيب فأراد هؤلاء أن يذهبوا بعلمهم إلى أولئك الناس، ولكن السؤال: هل

أفلح الكتاب في تأدية رسالته إلى هؤلاء؟ وهل الحديث إلى الناس في المساجد هو الحديث نفسه إليهم في الأوراق والبحوث؟ فأين التقت هذه الوسائل (الخطابة والبحث والتربية) وأين افترقت؟ وكيف. . .؟ ولماذا. . .؟ وكلها أسئلة تدل على عنصر جديد من الحياة والحركة وتشمل في طياتها نسغ الحياة الخالدة، ولا أرغب في الإجابة عن هذه التساؤلات التي أردتُ بها الإعراب عن الخطة المعقدة أو المركبة عند البحث لأداء رسالته إلى أولئك الذين لايصل إليهم الخطيب بجسمه، وإنما يأتيهم علمه ورأيه، فهذه وسيلة أخرى للدعوة يضيفها الخطيب إلى وسائله المعهودة.

وفي حديث الأستاذ داخل عن طريقة بناء كتابه يقول: «وإذا أردت أن أقلد الفقيه الصدوق حتى في عدد المجلدات والتقسيمات الفنية، فلابد أن تكون أربعة:

١ ـ يكرس المجلد الأول منها للشعرالذي يعتبر حجر الأساس لمن يريد ممارسة هذه المهنة، وقد وضعت خيرة القصائد، وأجود الأشعار لأدباء قدامى ومعاصرين، وقد يجد الأخوة الخطباء بعض القصائد المطولة، فالمجال أمامهم مفتوح لاختصارها. . .

٢ ـ يتناول المجلد الثاني مايناسب المهرجانات والاحتفالات العامة والمجلس. . .

٣ ـ يتضمن المجلد الثالث مجالس التربية والتوجيه خلال ليالي شهر رمضان المبارك.

٤ ـ ويتعلق المجلد الرابع بحياة النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وذكرى أهل بيته [على] التسلسل. .» [من لايحضره الخطيب ١/ ٢٩].

قَدَّم الشعر على سواه لأن الشعر لاصق بمشاعر الناس وقواهم النفسية، وغاية الخطباء إنما تكون في قوة التأثير، وفي حركة الشعر تسهل حركة النفس وقواها الجياشة، وتنتقل العدوى ـ على درجات ـ إلى المتلقين، وتخلق بأجواء المعاني ومايصحبها من صور عالماً رفيفاً يرقى إلى الخطاب الروحي، ولاعجب في تقديم الشعر لأنه أكثر ألوان الأدب تأثيراً في العرب لأنهم عندما وجدوا القرآن أشدة قوةً من الشعر على التأثير قال بعضهم في القرآن: إنه قول شاعر، وقال بعضهم: سحر يؤثر أو سحر مستمر، فقوة القرآن أعلى رتبةً مِنَ الشعر في التأثير، وهي عندهم تعدل قوة السحر في نقل الحوادث، وتصوير العوالم بذلك النظم القرآني العجيب، عندما كان العربُ يتلقونَ لغتهم جزءاً من الحياة، وحركة لاتحتاج إلى تجسيم أو شرحٍ أو إيضاح، ولما تَخَلَّفَتْ هذه الأمةُ عن القرآن وعوالمه الرحيبة، عاد الشعر إلى الصدارة، وصار الشعرُ مقدماً لغاية تحريض الناس بأسلوب غير مباشر، والحديث عن الشعر وعلاقته بالقرآن العظيم له شجون، ومسائل تخرج بنا عن المغزى لهذا الكلام إلى سواه، وإن تعلق كلامنا هنا بطرف من أطرافه.

بدت غاية الكتاب والمؤلف صريحة جلية في بيانه أنه يدع للأخوة الخطباء حرية الاختيار، فالكتاب ليس كما تراءى لنا مِنْ عنوانه مكتوباً للناس الذين لايحضر إليهم الخطيب لأنهم لايذهبون إلى دور العبادة والمجالس، وإنما لأولئك الخطباء الذين لايحضر إليهم خطيب لأنهم خطباء، فلا يجتمع خطيبان في وقت واحد يخطبان ويسمعان لأن علو أحدهم منبر الخطابة يسقط صفة الخطابة في ذلك المجلس عن الآخر الذي لايخطب.

فالكتاب إرشاد للخطباء، وعند قراءة قسم الشعر يعجب المرء كيف غابت قصائد كثيرة في مدح رسول الله أو آل بيته صلوات الله عليهم مِنْ قِبل فئات أخرى من المسلمين وغيرهم، لأن آل البيت

ميراثٌ إنساني خالدٌ لاتختص بهم فئة دون فئة أو جماعة دون جماعة، فما بال كعب بن زهير لم تنل قصيدته شيئاً من الكتاب بعد أن حظي ببردة رسول الله ﷺ، وأين نذهب بمراثي حسان بن ثابت لآل البيت وغيرهم من العرب المسلمين، لاريب عندي في أن أخي داخلاً قد نظر في أمر الاختيار فوجد أن النصوص الشهيرة اكثر شيوعاً على الألسنة، وأن الاختيار لايقوم على الجودة وحدَها، وإنما يقوم أيضاً على مقدار قبول الخطباء لذكر اسماء الشعراء على تلك المنابر، وأثر التاريخ والسياسة في الاختيار مما لايكاد يخفى، ولاأكاد أشك أن أخانا داخلاً سيقدم اختياراً آخر يجمع فيه شعراء الأمة وأدباءها عندَ آل البيت بعد أن افترقت بهم السبل عند سواهم، لأن آل البيت يدخلون في باب المتفق عليه في أمور حياتنا، وماعلى المؤلف لومٌ بعد أن أوضح غايته وشرطه في ابتداء مؤلفه، ومن طبيعة الاختيار أنه لايمكن أن يقوم على غير الحذف والاصطفاء لهذا العامل أو ذاك، ولو أنه أثبت لهؤلاء لقلنا: لِمَ لم يثبت لأولئك، وهذا من طبيعة الاختيار، ولكلٍّ امرىء مااختاره.

ومن أسرار الحياة والحركة في الكتاب وجودُ هؤلاءِ العلماءِ الفضلاء على أبواب الكتابِ ليكونوا أدلاءَ لمن أراد الدخول في مدينة العلم فمن نافذتها الشعرية، لاتكاد ترى شيئاً قبل أن تقف مع الدكتور الشيخ أحمد الوائلي (١/١١) وتحظي بشيء من الكلمة الطيبة للاستاذ جعفر الهلالي (١/١٥)، وبعد ذلك يقف لك المؤلف بنفسه راسماً خطةَ الرحلة، وشروطَها، لتأخذ سبيلك إلى آل البيت في دنيا الشعراء وعوالمهم، مما يصلح أن يؤلف قاعدة لبحث في موضوع آل البيت في الشعر العربي وأثر هذا الموضوع في الشعراء وأشعارهم نفسها.

وفي مدخل المجلد الثاني تقف مع السيد عبد الزهراء الحسيني صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة وأسانيده، لتعلمَ من سبق المؤلف إلى مثل هذا العمل ومنزلة هذا العمل عند أصحاب العلم.

وفي مدخل المجلد الثالث يخطب الدكتور السيد محمد بحر العلوم في موضوعات للتاريخ وقضاياه، ومنزلة الخط الحسيني في الحياة.

وفي المجلد الرابع عند مدخله تقف أمام أ.د. أسعد علي مراعياً مقتضى الحال متحدثاً شعراً ونثراً يدنو من الشعر، متكئاً على رصيد ضخم من سمو التعبير الصوفي ورشاقةِ الشاعرِ، وبراعةِ الكاتبِ، ولب العريف بمواطنِ الإشارة والبلاغة، والفقيه بأبعاد الكلمةِ ورياحِها وتبدلِ اتجاهاتها، وفارسِ جناسها وتقاليبها، وكان قدراً طيباً أن يكون خاتم المعرفين بالكتاب من العارفين به، وبأساليبه، مما يغري مريديه بالحج إلى أفكاره ومعانيه في أيِّ مكان بناها لما عرفوه من طيب جناها، ولاأقول ماقلت لما وجدت في النصين فقط وإنما لما ذقت وعرفت قبل ذلك في مجالس الدرس (سنة ١٩٧٩م).

فالكتاب اختيارٌ حي خالدٌ لخلود موضوعه، ولبراعةِ مؤلفهِ في مشروعه، وعرض اختياره وبحثه ومضمونه ولاجتماع هؤلاء الأفاضل عند مداخله وفي دواخله، ولأن المحضر والحضرة قد تمت في شهر رمضان شهر الفرقان، ولاريب في أن قراءة الكتاب متعة لمن قرأه موافقاً، وأكثر من متعةٍ لمن قرأهُ مخالفاً، واختلاف أمة الهادي رحمة ومحبة، وليس نقمة كما قد يُظَنُّ والله أعلم.